معنى الأسماء وإسم الجلالة

أسماء الله أفعالٌ دالَّة على الأحديّة من دون تقييد

محمد أحمد علي
حقوقي وباحث في الإلهيات والدراسات العرفانيّة. سوريا

ملخص إجمالي:

تبحث هذه الدراسة في معنى الإسم والإسم الإلهي على وجه التخصيص. وقد ذهبت إلى التمييز بين معناه الإجمالي تبعاً للاختبار الحسي والنظر العقلي، وبين ما يختزنه إسم الله الأعظم من أسماء وصفات وأفعال وتجلّيات. ولأجل هذه الغاية تفتح الدراسة على آفاق مفارقة في فهم الإسم الإلهي، استناداً إلى حقول التأول التي امتلأت بها مدونات العرفاء وما ورد في الأحاديث الشريفة والآيات البيِّنات. وتمضي الدراسة إلى تبيين حقائق اسم الله ومعناه في صفاته وأفعاله بكونها منزهة عن التعيّن في المكان والزمان وبأنها مختصة بذاته القدسية وليس لها دلالة على سواه. وهي إن ذكرت فذكرها دالٌ على أفعال الله وتدل على معنى الأحدية من دون تقييد بشي.

* * *

مفردات مفتاحية: معنى الإسم – أسماء الله الحسنى- اللَّاتعيّن- الصفات- الحكمة المعصومة- مفهوم الباطن.

تمهيد:

الإسم هو ما دلَّ على مسمَّاه باللَّفظ، أو بالكتابة، أو بالفهم، أو بالنظر الحسّيِّ، أو بالتعرُّف العقليّ. هذا من حيث تعريفه العامِّ ومن حيث نحن وأسمائنا. أمَّا أسماء الله الحسنى فلا جهة لها تعيِّنها، ولا حدَّ يحدُّها، ولا مكان يحويها، إلاَّ أنَّها مختصَّة بالله وليس لها دلالة على غيره. والأسماء إن ذُكِرَت كانت دالَّة على أفعال الله، وكلُّها تدلُّ على معنى واحد من دون تقييد الشيء. ومن قبل أن نغادر التعريف بالاسم نقول: إنَّه بشكل عامٍّ دلالة على مسمَّاه من حيث إطلاقه لا من حيث تعيينه، وإن كان من مدلولات التعيُّن، ومن حيث دلالته، فكلُّ ما في الكون من أسماء هي دالَّة بحقيقتها على قدرة الله وعلمه ومشيئته.

والله تعالى ظهر بقدرته، وبَطُن بحكمته، وحجب ذاته عن عالم الشهادة بأسمائه وصفاته، وحجب صفاته بأفعاله، وكلُّ ما في الكون من موجودات من فعله سبحانه. ومن خلال البحث عن معنى اسم الله يستوقفُنا ما تقدم به جمعٌ من العرفاء؛ منهم من هو في القرن العشرين، ومنهم من سبقوهم من حيث الزمن، ولكنَّهم عبَّروا عن الحقائق المعرفيَّة بصورة متكاملة. لذا آثرنا المكوث في بعض كتبهم لنجد أنَّهم أشاروا إلى الاسم بكلِّ الاعتبارات؛ ولئن تعدَّدت الأقوال في المواضع، إلا أنها ذات بنية واحدة، وإن تباينت من حيث اللَّفظ المرسوم على الورقة وفق موقع الكلام، والمتلقّي لها يألفُها متناغمة شاملة لكلِّ ما كَمُن في الاسم من معان ودلائل بحكمة العارف، وإتقان المحاضر، وإشارات الشارح. والحاصل، وجود تعيُّنات يقترب فهمها حتى لتكون واحدة من حيث المبنى مع أقوال سادة العرفان وأئمة البيان. أولئك الذين ابتنينا مداميك معرفتنا على فُتات موائدهم العامرة بالعلوم، رغم تباعد الزمن ما بين مؤلَّفات العرفاء وبينها، والتي قد يصل إلى قرابة ألف عام تقريبًا، ومنها ما كان في عصر أولئك السادة.

مفهوم الباطن ومعناه:

بادئ الأمر لا مناص حيال مواجهة (الاسم والمعنى) من التعرُّض بشكل وجيز إلى مفهوم الباطن، ومن المفيد هنا الاسترشاد برواية جابر بن حيَّان التوحيديِّ الصوفيِّ في كتابه «الحدود»[1]، عن الإمام جعفر بن محمد الصادق(ع) قوله: وحدُّ علم الباطن أنَّه العلم بعلل السُّنَن وأغراضها الخاصّيَّة اللاَّئقة بالعقول الإلهيَّة، وحدُّ العلوم الإلهيَّة، أنَّها علوم ما بعد الطبيعة من النفس الناطقة

[1]- أنظر جابر بن حيَّان – كتاب الحدود – مكتبة نور – نقلاً عن الأرشيف المستحدث في مكتبة القاهرة – جمهورية مصر العربية - -2014 ص 105.

والعقل والعلّة الأولى وخواصّها.[1] وفي كتاب «الماجد» يقول جابر: وحدُّ الباطن أنَّه الغرض المستور المراد بالظاهر. وإذا كان الأمر كذلك وجب أن نتدرَّج إلى العلوم العقليَّة أوَّلاً فأولاً، وإلاَّ كنَّا كمن طال حبسه تحت الأرض بحيث لا يرى ضوءًا، ولا يفرق بين الليل والنهار، وأخرج دفعة واحدة فنظر إلى عين الشمس أول ما نظر فذهب بصره، فلم ينتفع بما خرج إليه من ضياء. ولو دُرِّج إليه تدرُّجًا لقد كان له نافعًا. وأقلُّ ما فيه من النفع ألاَّ يذهب بصره.[2] وما كان لنا إيراد هذه الأقوال إلا لنوضح أن ما نقوم به الآن من تدرُّج في فهم الدلالات والإشارات في علوم أهل العرفان هو الخطوة الأولى والصحيحة لطالبي هذا العلم، إضافة إلى ما يُشاع من أقوال عن مفهوم مغلوط لعلم الباطن.

ومن قبل أن نمضي الى متاخمة مفهوم الاسم والمعنى، علينا أن نوضح مفهوم أسماء الله المتعدِّدة وخصوصًا في أنبيائه ورسله، وحقيقتها الواحدة مهما تعدَّدت المظاهر، ليصحَّ معنا بحث الاسم والمعنى. وتوضيحًا لهذا المفهوم فإن التعيُّن الأول باعتبار مقام الذات هو مقام اللاَّتعيُّن، فكان النور المحمديُّ (أول ما خلق الله نور نبيِّك يا جابر) هو اسم الله الأعظم، هو الواحد، وهو الحقيقة المحمديَّة وإن تعدَّدت الظهورات في المظاهر. ومهما تكثَّرت فهي واحد في عين الوحدة وفي الحقيقة الغيبيَّة. وأما الواحد فهو أصل الأعداد، وكلُّ الأعداد من مضاعفاته ولا يختلف الواحد في أيِّ عدد من الأعداد عن الواحد الأول. وكذلك فإن عدد كلِّ نوع أو جنس هو عنصر هذا الجنس وأصله. هذا من حيث العدد الرقميِّ. كذلك في ما يختصّ بمسألة التعدُّد في المظاهر، فلا يمكن أن نسمّيها نسخة طبق الأصل بالمطلق، بل كلٌّ منها عين الآخر، وهو الواحد الأصل، وأيُّ فيض من المظهر تكون إفاضته من الأصل. وعليه، يكون الواحد هو الدليل لبَدء العدِّ بأيِّ رسمٍ رسمته، أو شكل رأيته، أو صورة أبديتها، فهو يشير إلى نفسه بنفسه، أنَّه الواحد بما يعطي من دلالة ومعنى إلى البداية. والنهاية مفتوحة إلى أن ينقطع العادُّ للعدد. وأيُّ واحد أخذته من كمِّ العدد يعطي معنى الواحد الأول في مجموع العدد.

في السياق إياه نشير إلى ما ذكره الفيلسوف العارف عبد الرزاق الكاشاني في «لطائف الأعلام» عن الواحد وهو الاسم وعلاقته بمعناه. يقول الكاشاني في هذا الموضع: إن مظهر الأحديَّة الجمعيَّة، هو الحقيقة المحمديَّة، لأنَّ الأحديَّة ليس وراءها إلاَّ الغيب، فلهذا اختصَّ نبيُّنا(ص) بمظهريَّتها

[1]- المرجع السابق – ص 110.

[2]- جابر بن حيان- كتاب الماجد – مخطوطة ضمن محفوظات المتحف البريطاني رقم 8229 – لندن- ص 118.

لأنَّه لا يعلوه مظهر»[1]. وهنا يلزم القول في المظاهر النبويَّة أنَّ كلَّ مظهر منها هو الواحد الأصل بحقيقته، بالنور الغيبيِّ صاحب التكوين (النور المجرَّد)، وإنَّ تكثُّرها لحاجة المخلوقين إليها وفق حالة المجتمع المطلبيَّة، مستندًا إلى ما جاء به النصُّ القرآنيُّ بأن لا نفرِّق بين أحد من رسله، وإن كان الاسم الأول فكلُّها من فيض نوره، فإن اختلفت الصفات المظهريَّة فالحقيقة الغيبيَّة للمظاهر واحدة لا تتغيَّر، فشرعُ الله واحدٌ، وخصوصًا أنَهّ سبحانه أمرنا أن نطيعه ورسوله، وقرن طاعته جلَّ وعلا بطاعة رسله. ذاك يدعونا إلى القول: إنَّ الكثرة الأسمائيَّة والصفاتيَّة بظهور الفيض الأقدس في كسوتها التعيينيَّة (أي في مظاهرها) في محدث الاسم، تشير إلى أنها كلّها واحديَّة. وقد أنحلها باريها صفات الأحديَّة لتبقى الأحديَّة ذاك الغيب المنيع مشيراً إلى قديم الاسم.

في هذه الحالة التعيُّنيَّة سوف نتوصل إلى فهمٍ مخصوصٍ مؤدَّاه ما يلي: «إذا تمَّ ظهور عالم الأسماء والصفات ووقعت الكثرة الأسمائيَّة بظهور الفيض الأقدس في كسوتها، فُتِحت أبوابُ صور الأسماء الإلهيَّة إلى حضرة الأعيان الثابتة في النشأة العلميَّة والَّلوازم الأسمائيَّة في الحضرة الواحدَّية، فتعينّ كلّ صفة بصورة، واقتضى كلُّ اسم لازمًا ما حسب مقام ذاته من الُّلطف والقهر والجلال والجمال والبساطة والتركيب والأوليَّة والآخريَّة والظاهريَّة والباطنيَّة».[2]

هذه الإشارة الَّلطيفة إلى عالم الأسماء والصفات بتكثُّر ظهورها بمظاهرها، قد تشي للوهلة الأولى إلى إرباك فكريٍّ. حتى إذا فُتِحت للسالك العارف أبواب في أقوال لاحقة، ومضى في مدارج الحضرة المحمديَّة، عاد إلى أبواب الصور والأسماء الإلهيَّة. فالقول بظهور الأسماء والصفات إنما هو إشارة إلى ظهورها في المظهر الأتمِّ في الحقيقة المحمديَّة، وهنا تتكوَّن صورة الكمال للصفات الإلهيَّة في محدث الاسم الدالِّ على قديمه. وذلك بتلميحاته إلى الحضرة الواحديَّة في النشأة العلميَّة صاحبة علم الله الجامع في عالم الشهادة، فهو الشهيد والشاهد على الناس كلِّ الناس، وقتضى الأمر أن يكون هو الواحد الأول في كلِّ مظهر من المظاهر، وينفي التعدُّد بالاختلاف، كما أشار إليها صاحب الحكمة المتعالية (صدر المتألِّهين الشيرازي) بقوله: «تكثُّر: والتكثُّر في الظهورات والتفاوت في الشؤونات لا يقدح وحدة الذات، ولا ينثلم الكمال الواجبيُّ، ولا يتغيَّر به الوجود الثابت الأزليُّ عمَّا كان عليه، بل الآن كما كان حيث كان لم يكن

[1]- عبد الرزاق الكاشاني – لطائف الأعلام في إشارات أهل الإلهام- الجزء الأول – تحقيق سعيد عبد الفتاح – دار الكتب المصرية- القاهرة- -1985 ص 60.

[2]- جابر بن حيان- كتاب الماجد- مصدر سبق ذكره – ص 43.

معه شيء، ولذا قيل: وما الوجه إلاَّ واحد غير أنَّه إذا أنت عددت المرايا تعدَّدا».[1]

والتعدد بالمظاهر إنما هو لحاجة المخلوقين، وما اتَّصفت بها من صفات الجلال والجمال والجبروت والرحمة، كما أن كلَّ رسول جاء بلغة قومه ووفق الحاجة في المجتمع الذي يبشِّر فيه ويدعو إلى الله بما يتناسب مع ذاك الزمن الذي ظهر فيه، من دون أن يتبدَّل أو يتغيَّر بحقيقته. كمظهر الماديَّة في شرعة موسى (ع)، ومظهر الروحانيَّة في شرعة عيسى(ع)، والماديَّة والروحانيَّة في شرعة محمد(ص)، لكي لا يكون للناس على الله من حجَّة. هذا من حيث المظهر، أمَّا الحقيقة الغيبيَّة للمظهر، وهي الباطنة والظاهرة والأوليَّة والآخريَّة، فهي بفيض النور الأقدس فيها وحقيقتها واحدة. وبهذا وصلنا إلى مطرح إشكالي يصعب فكُّ رموزه، فكان الصمت أبلغ من الكلام كي لا نقع في التخيُّلات والأوهام.

في حقيقة الإسم والمعنى

رغم البحث الجادِّ عن كلمة المعنى منفردة بدلالاتها المخصوصة هنا، يتعذر أن تجد لها أثرًا يُذكر في كتب اللُّغة مثل مختار الصحاح ولسان العرب – والمنجد – وكذلك في كتب الفلسفة. غير أنها ستظهر لنا في كتب ومصنفات العرفاء على مراتب ومدارج وأفهام متفاوتة. منها ما وقعنا عليه في فقط رأيت لها ذكرًا في «مصباح الهداية»[2] وخصوصًا في هامش الكتاب، إذ وضع مترجمه أحمد الفهري حديثًا حول المفهوم نفسه بكلمة المسمَّى. وكذلك وجدنا لها أثرًا غير ذي بال لا يقترب من مفهوم المصطلح الذي نحن بصدده عند الجرجاني، حيث رأى إلى المعاني بما هي الصور الذهنيَّة من حيث إنَّه وضع بإزائها الألفاظ والصور الحاصلة في العقل، فمن حيث إنَّها تقصد باللَّفظ سمِّيت معنى... والمعنى هو ما يقصد بشيء. والمعنوي: هو الذي لا يكون للِّسان فيه حظٌّ وإنما هو معنى يُعرف بالقلب.[3] وأمَّا المعنى كحالة معرفيَّة منزَّهة عن الأشكال والصور فقد قال فيها الشيخ الجليل محمد بن علي الجلي برواية ميمون بن القاسم الطبراني: إنَّ المعنى جلَّت قدرته، وعظُمت مِنَّتُه، وعزَّت مشيئته، أحدٌ فردٌ صمدٌ أزلٌ حيٌّ دائم. معنى المعاني، وربُّ المثاني، والغاية القصوى، والنهاية الكبرى، ومعلُّ العلل، ومُؤزِّل الأزل، كان ولا مكان ولا دهر ولا زمان ولا حركة ولا سكون ولا حسّ ولا جوهر ولا جنس. متوحِّد بذاته، منزَّه عن صفاته، لا يحدُّه حدٌّ، ولا يبلغه عدٌّ، كان قبل الأسماء والحجب والرُّسل والكتب، لا يحويه مكان ولا يحصره زمان .....

[1]- صدر المتألهين –الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربعة – ج 2 – دار إحياء التراث العربي- بيروت – -1981 ص 347.
[2]- روح الله الخميني الموسوي- مصباح الهداية – مقدمة أحمد الفهري- مؤسسة الأعلمي- بيروت- 1993
[3]- الجرجاني – كتاب التعريفات – الجزء الأول – دار الكتب العلمية – بيروت – -1983 فقرات/ 1753 – 1755 – 1756.

ثمَّ شاء بقدرته وحكمته وإرادته ومشيئته ومنّته أن يكون المكان فكوَّنه من نور ذاته، وجعله أول مخترعاته، وموضع صفاته، ومحلَّ تجلِّياته، ثم أظهر اسمه وحجابه ليظهر منه وبه آياته.[1] وبهذا يكون الجليّ قد قصد بالمعنى الذات الإلهيَّة. وبالرواية نفسها، ورد أن منزلة الاسم من المعنى (المسمَّى) أي الذات: كمنزلة النطق من الناطق، والنظر من الناظر، والحركة من السكون تمثيلاً بهذه الأشياء لا تحقيقًا لها. لأنَّ المعنى تعالى لا يحول ولا يحويه مكان، ولا يحصره زمان، ولا له شبيه ولا نظير ولا عديل، والحجاب هو قدرة هي أكبر قدرة...».

وهنا يصير القول عن مفهوم المعنى بيِّناً: ان كلمة (معنى) تعني المسمَّى للدلالة على نفي الحصر والحدِّ عن مفهومها. وهي في الوقت نفسه مصطلح يدلُّ على حقيقة الاسم وقيامه فيه، ونبسِّط مفهومها بأن نقول من دون أن نأخذ المعنى الفلسفيَّ ولكن نأخذ معنى استنباط الحقيقة من المظهر الحسيِّ، وهذا يعني المدلوليَّة لا غير ذلك، فنقول: يدلُّ على المعنى رسم الحروف أو الاسم، كأن تقول كلمة (الله سبحانه) فتدلُّ كلمة الله بحروفها على معنى مجرَّد عن الشيئيَّة لا يوصف رغم أنَّك أطلقت عليه اصطلاحًا اسم الله. وهو حالة عقليَّة معرفيَّة في غاية الصفاء والتجريد.

لا بدَّ من الإشارة هنا إلى أنَّه من الصعب أن ترى كلمة في أيِّ لغة تعطيك تعريفًا صحيحًا لكلمة معنى سوى أنَّها تشير إلى موجود غير مرئيٍّ أو محسوس رغم استخدامنا الأمثلة المحسوسة، ولقيام الاسم تحت حدِّ الرسم الحرفيِّ أو الفعليِّ رغم أنَّه يدلُّ على مفهوم غير محدود بدقَّة التعبير، لكنَّه محدَّد لجهة وغير محدَّد لجهة أخرى. ولتقريب الأمر إلى الفهم نقول: أن الفعل منسوب إلى الفاعل الحقِّ، فننسب القدرة إلى القادر، ونضيفها إلى مظهرها (الصورة)، فإن فعلنا نكون قد فهمنا معنى أن ننسب الفعل إلى فاعله الحقيقيّ. والاسم هو ما دلَّ على متعينّ موجود حسًّا أو عقلاً، ودلالته صاحبة التمكين في معرفته، فالاسم بأحرف لا تعني شيئاً إن لم تأخذ في العقل تصوراً ما عن فعلٍ ما أو شكلٍ أو صورة ما. فالظاهر طريق عبور للباطن. والاسم يدل على المسمّى. ولمّاً جرى الكلام عن الاسم واتصاله بالمعنى (المسمَّى) ذهب بعض العرفاء إلى القول: إنَّه عالم قاهر، مفوَّض إليه العلم، ممنون به عليه، يجري من مولاه الأزل تعالى بمنزلة مجرى الشعاع من القرص، وكاللهيب من النار، وكالفيء من الشبح من غير تمثيل ولا تحديد، يُظْهر منه وبه الآيات والدلائل المبهرات بغير مشورة ولا واسطة ولا مؤامرة، ولا متَّصل به ولا منفصل عنه لأنه متَّصل غير منفصل كاتصال الشعاع

[1]- أنظر محمد بن علي الجليِّ- رسالة في المعنى- مخطوط خاص غير مطبوع لدى الكاتب.

بالقرص. وإنما معنى قولنا لا موصول ولا مفصول فإنما يراد به أنَّه لا متَّصل به اتصال ممازجة[1] ومطابقة ولا مجانسة، ولا منفصل عنه كانفصال انقطاع ومفارقة، وإنما منزلة بين منزلتين. وحالة بين حالتين». في «مصباح الهداثة» ثمة إشارة إلى موضوع الاسم والمسمَّى والمعنى بطريقة لطيفة يزيل فيها أيَّ التباس بين المظاهر والحقائق بصورة ما، وأوضح الانتساب بينهما وما هو صادر عن الاسم فهو بحقيقته عائدٌ إلى المسمَّى. على أن تكون النسبة نسبة الظاهر مع الباطن مع نفي التعيُّن للذَّات بحقيقة الذّات الخارجة عن حدِّ الأسماء والصفات التي أنحلها الباري عزَّ وجلَّ إلى حجابه بأسمائه وصفاته. فالعبادة هي لما أشار إليه الاسم لا لمظهر الاسم، وذلك ما يظهر القول التالي: «أنَّ الشيء يفعل بتعيُّنه إنَّه لا يفعل ذاته بذاته بلا التعيُّن الاسميِّ والصفاتيِّ أو كسوة الأعيان فهو حقٌّ كما عرفت تحقيقه لكنَّه لا يوجب نفي الانتساب إلى المتعيّن، بل إن الفعل منسوب إلى المتعيّن حقيقة لا التعيُّن، وإن أراد أن التعيُّن فاعل فلا وجه صحيح له، وإن أراد أنَّه آلة للمتعيّن فمع كونه خلاف التحقيق في طيِّ الأنوار الإلهيَّة أنَّ الذَّات في كسوة التعينات الأسمائية تتجلى على الأعيان الثابتة[2] وفي كسوتها على الأعيان الخارجيَّة. ولكن، لعدم الحجاب وصفاء المرآة، كانت التجليّ ذاتيًّا لا شريك له تعالى في الهيئة، وهذا أحد معاني الحديث منقول بمعناه، واللفظ ليس كذلك. الوارد عن أهل بيت العصمة سلام الله عليهم أنَّ التوحيد الحقيقيَّ بإيقاع الاسم على المسمَّى وإلاّ فعبادة الاسم كفر، وعبادة الاسم والمسمَّى شِرك، صدق ولي الله»[3]. وعن أبي عبد الله (ع) قال: من عبد الله بالتوهُّم فقد كفر، ومن عبد الاسم ولم يعبد المعنى فقد كفر، ومن عبد الاسم والمعنى فقد أشرك، ومن عبد المعنى بإيقاع الأسماء عليه بصفاته التي وصف بها نفسه فعقد عليه قلبه ونطق به لسانه في سرائره وعلانيته، فأولئك أصحاب أمير المؤمنين(ع). وفي حديث آخر (هم المؤمنون حقًّا).[4] وعنه(ع) أن «من عرف المعنى من جهة الاسم فقد جهل أكثر مماً علم. ومن عبد الاسم وجهل المعنى فقد كفر. ومن عبد المعنى وجهل الاسم فقد ضلّ. ومن عبد المعنى والاسم فقد أشرك. ومن قال إنَّه لا يُرَى فقد أحاله على عدم. ومن قال إنَّه يدركه فقد شبَّهه بخلقه. ومن قال إنَّه في خلقه فقد أحوجه إلى مكان دون مكان. ومن قال إنَّه خارج عنهم فقد نفى وجوده. ومن عرفه

[1]- أنظر في هذا الخصوص كتاب صدر الدين الشيرازي(ملا صدرا) المظاهر الإلهية – تحقيق جلال الدين الآشتياني- المكتبة الرضوية – مشهد 1380هـ - ص 14.

[2]- الأعيان: ما له قيام بذاته، ومعنى قيامه بذاته أن يتحيَّز بنفسه غير تابع تحيُّزه لتحيُّز شيء آخر، بخلاف العرض فإنَّ تحيُّزه تابع لتحيُّز الجوهر الذي هو موضوعه، أي محلّه الذي يقوم فيه.

[3]- الأعيان الثابتة: هي حقائق الممكنات في علم الحقِّ تعالى، وهي صور حقائق الأسماء الإلهيَّة في الحضرة العلميَّة لا تأخُّر لها عن الحقِّ إلَّا بالذَّات لا بالزمن، فهي أزليَّة وأبديَّة، والمعنى: بإضافة التأخُّر بحسب الذَّات لا غير. (كتاب التعريفات – الجرجاني).

[4]- روح الله الخميني الموسوي – مصباح الهداية – مصدر سبقت الإشارة إليه- ص 109.

بدلائله وإشاراته من حيث أظهر ظهوراته وعلاماته وآمن بما شاهد من معجزاته فأولئك أصحاب أمير المؤمنين حقّاً الذين إذا دُعُوا أجابوا ولبوا»[1].

يقول أبو حيَّان التوحيديُّ في الإشارات الإلهية: «وإيَّاك أن تعطي الاسم ذات المعنى فتتعب، وإيَّاك أن تعطي المعنى رسم الاسم فتكذب، وإيَّاك أن تفرّق بينهما فتُتَّهم، وإيَّاك أن تجمع بينهما فتوهم»[2]. وهنا قد يحصل التباس في فهم المقصود من كلمة الاسم والمعنى في هذا الحديث عن الإمام برواية أبي حيَّان التوحيديِّ، فلتوضيحه يمكن القول: الاسم كما أشرنا إليه سابقًا أنَّ اسم الله هو الدليل إليه أو الدالُّ عليه من حيث الآية أو النبيِّ أو الرَّسول أو الإمام (ع). ولكن هنا، وفي هذا الحديث وما قبله أنَّ (لفظة اسم) تشير إلى من جرت على يده القدرة الباهرة. مثال توضيحي: في قوله تعالى: ﴿**قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنْ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرّاً عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ**﴾[3]. وهذا القول منسوب إلى اسم ظاهر معروف في جسم أعجز من يأتي بمثل هذه المعجزة، وكما ورد في التفاسير أنَّ القائل هو آصف بن برخيا، وجرت المعجزة، وأُحْضِر عرش بلقيس ولم تنسب المعجزة إليه (أي إلى آصف) بل إلى القدرة الإلهيَّة التي تجلَّت نطقًا على لسان آصف، ومن ثم فعلاً جرت بكن الإلهيَّة. بقول سليمان (ع): (هذا من فضل ربي) أي أنَّ سليمان(ع) نسب القدرة إلى مصدرها ألا وهو الله القادر بتوسُّط الاسم المتجلَّى به أي الاسم الذي جرت القدرة على يده.

فمن عبد آصف بن برخيا وهو مظهر التجلّي الإلهيِّ باعتباره صاحب المعجزة فلقد كفر بالله، ومن عبد المظهر آصف باعتباره شريكاً لله بالقدرة فلقد أشرك مع الله صورة تجلّيه بآصف، ومن عبد الله سبحانه صاحب القدرة بدلالة المعجزة التي جرت من صورة آصف، أي من نسب القدرة إلى القادر غير المرئيِّ وغير المحسوس بحدود الرؤيا والحسِّ، ومن ثمَّ أضافها إلى الصورة التي جرت القدرة على يدها، فهو عابد لله تعالى وحده بدليل آصف وليس بآصف، لأنَّ صورة آصف محدودة، والصورة صفة من الصفات، فمن عبد صفة من الصفات جهل أصلها ومنبعها، فالعبادة لمصدر الصفة وليس للصفَّة فهم الموحّد.

---

[1]- هامش مصباح الهداية- مصدر سبق ذكره- ص 110.
[2]- أبو حيان التوحيدي- الإشارات الإلهية – تحقيق: عبد الرحمن بدوي – مطبعة جامعة فؤاد الأول -1975 ص 80.
[3]- سورة النمل، الآية 40.

الإسم ليس ذات المعنى

(المعنى) إذًا، مصطلح يعني المفهوم العقليَّ للكلمة أو الإشارة أو المعجزة، وما هو غير محدود ولا محدَّد ولا رسم ولا شكل له، هكذا هي المعاني بشكل عامٍّ، وكلُّ كلمة تدلُّ على معنى من تجمع حروفها برسمها المتَّفق عليه، وهو أشبه بالحركة العقليَّة التي تقودك إلى معنى مدرك بالحواسّ. ربما علينا أن نعود هنا إلى ما جاء في حديث أبي حيان التوحيديِّ لنوضح معانيه، ولنقرأ الحديث وفق المفهوم السابق:

أولاً: قوله (وإيَّاك أن تعطي الاسم ذات المعنى): ننطلق لفهم هذا العبارة من دليل لا يختلف عليه اثنان فنقول: إنَّ أحرف لفظة الجلالة وهي كلمة مشكَّلة من عدد من الأحرف، يمكن أن تشكَّل منها كلمة أخرى أخذت شكلاً محدَّدًا معروفًا عند الجميع، وهي (الله)، فليست حروف الكلمة لا مجتمعة ولا متفرِّقة هي ذات الله، فكلمة الله بإمكانك أن ترى حروفها وتلفظها على لسانك وتلمسها بيدك، وهي محدودة الشكل والرسم بأيِّ لغة كتبتها، وبأيِّ خط رسمتها، وذات الله لا يمكن التفكير فيها ولا البحث عنها من حيث كنهها ولا الادعاء بظهورها، ولا أنَّها خفيَّة مخفيَّة، فالذات أظهر ما في الوجود وباطنة عن كلِّ حاسَّة، وفي كلِّ شيء، فعين بطونها عين ظهورها، وإنَّما اسم دلَّ على أو إلى معنى، والمعنى متعلِّق بثقافة من تلفَّظ بالكلمة.

وتوضيحًا للفكرة التي سَلفت نستطيع تقرير ما يلي: كلُّ ما في الكون قائم بعلم الله وقدرته، وهو القائم على كلِّ شيء، وكلُّ شيء قائم بالله، ولو صحَّ لأن يكون شيء قائمًا بغير الله لكان في الكون إلهان وقادران، فإن كان مع كلِّ شيء وفي كلِّ شيء من دون حدود الشيء، داخلاً به، خارجًا منه ليس كدخول الشيء بالشيء، فلا يمكن أن يكون منظورًا، ولا معلومًا بالإحاطة، ولا محدودًا في أيِّ شيء وحتى رسم اسمه أو مظهر تجلّيه، فمن رأى القدرة حينما تتجلَّى بصورة المعجزة يمكن أن يرى غيرها، فالقدرة غير منظورة بالعين وإنَّما نقرأ أثرها على المادَّة لعجز الصورة من فعلها، فنقرُّ بالقدرة فكيف بالقادر.

فإن قلت إنَّ الاسم ذات الشيء تعبت لتصل إلى حقيقة المسمَّى، فاسم الشيء ليس حقيقته.

ثانياً: قوله (وإيَّاك أن تعطي المعنى رسم الاسم فتكذب): فإن هذه العبارة مكمِّلة للعبارة السابقة، ولكن يمكننا أخذها في معنى أكثر علاقة بعلوم العرفان، وهي ان أسماء الله هي الدالَّة عليه. وهنا نكون قد أخرجنا كلمة (الله باعتبار الذات) من حساب البحث، وتحوَّلنا إلى الأنبياء والرسل

باعتبارهم الدليل على الله، وهم أسماؤه وحجبه، فإن قلت إنَّ محمد أو عيسى أو موسى (ع) أو أيَّ نبيٍّ بظهوره البشريِّ هم الله باعتبار الذات فتكذب لأنَّهم أدلَّاء على الله وليسوا هم الله، أدلَّاء على الله بإظهارهم صفاته من عالم الكمون في النور المجرَّد إلى عالم الفعل بالقوَّة بالموجود، كالقدرة وغيرها من تبليغ الأمر الإلهيِّ، كما أنَّ اللسان الناطق بالحروف ليس هو الحروف، ولا الكلمات، ولا العقل الذي تصرف باللسان تصرُّف المستهلك بوليِّه ومولاه فأخرج النطق عنه إلى غيره.

ثالثاً: قوله (وإيَّاك أن تفرِّق بينهما فتُتَّهم): هذه العبارة أيضًا متمِّمة للعبارة السابقة، فمن فرَّق بين الله ورسوله اتُّهم بأنَّه لا يفهم معنى الرِّسالة ولا الرَّسول ولا المرسل، وكذلك يمكننا العبور بمعناها إلى رسم الحروف للكلمة، فإن قلت إنَّ رسم هذه الحروف لا تدلُّ على معنى هذه الحروف فتُتَّهم بالخبل، فكلمة شجرة إن لم تدلّ على معنى يشير إلى نبات معيَّن فهو ليس اسمًا لهذا الشيء، ولنبحث عن اسم آخر، فإن بقيت على هذه الحال فلن تجد اسمًا لشيء.

رابعاً: قوله (وإياك أن تجمع بينهما فتوهم): وإن قلت الاسم عين المسمَّى، وهذه العبارة مختلفة عن العبارة الأولى بالدلالة. فالأولى أشارت إلى الذات، وتكون قد أوقعت الذات تحت حدِّ الاسم والشكل، ولقد أعطت العبارة معنى آخر وهو إن اعتبرت الاسم والمعنى شيئًا واحدًا فأوقعت نفسك في وهم الأفكار، فالناطق غير المنطوق، ولم نفرِّق بين ما هو محسوس وما هو غير محسوس توهَّمت بأنَّ الجسم الذي أخرج القدرة هو عين القدرة فتجمع بين جسم وصورة آصف بن برخيا(ع) والقدرة التي أحضرت عرش بلقيس، وهذا غير صحيح من أيِّ جهة من الجهات، **فالجسم العاجز لا يستطيع أن يأتي بمعجزة إلَّا بتجلّي القدرة الإلهيَّة فيه ومنه وعليه، والقدرة بحدِّ ذاتها غير محسوسة ولا ملموسة وغير معيَّنة حتى قدرة الإنسان بحدِّ ذاته فكيف بقدرة الخالق، وكذلك لا تجمع بين القدرة والقادر، فالقدرة فعل ظهر** (أو بدا) ونعطي مثالاً تقريبيًّا لا يختلف على فهمه عاقلان **(عصا موسى(ع) خرجت القدرة عليها وليس منها، فهي ليست صاحبة القدرة وإنما القدرة جرت عليها لتنقل صورة الفعل)**، فكانت من صورة تشير إلى القادر وليست هي القادر، لأنَّ الله قدرة كلّه علم كلّه وعين علمه عين قدرته، ولو كانت القدرة هي القادر فالقدرة موجودة في كلِّ شيء، والأشياء قائمة بقدرة الخالق، وليست الأشياء هي الخالق. ولو كان غير ذلك لكان بتعدُّد القدرات في الأشياء تعدُّد الله، وهذا مُحال ومخالف للعقل ولقانون الموحِّدين.

لا بدَّ من القول هنا أنَّ الروايات السابقة تشكِّل الأساس الذي تُبنى عليه الجهة الإيمانيَّة ومعرفة علاقة الاسم بالمعنى، ومن ضمن هذه المعرفة معرفة المظهر حامل الأسماء والصفات في مبدعه.

علم المبدأ I.MOLMABDAA
العدد الخامس - 1445هـ - ربيع 2023م

وقد شرح هذا العارف بالله الشيخ أحمد محمد حيدر(1888-1975) بقوله: «إنَّ أسماء الله عبارة عما يدلُّ عليه من لفظ أو مفهوم أو جوهر عينيٍّ، وإطلاق الاسم في الأخبار على الذوات العينيَّة كثير، والفرق بين الاسم والصفة إذا اعتبر في الاسم معنى من المعاني كالفرق بين المشتقِّ ومبدأ الاشتقاق كالعلم والعالم. فالعلم لا يدخل تحت شرط لأنَّه مجرَّد قائم بذاته يضمُّ الشروط كلَّها بخلاف العالم، ولذلك لا يصدق على الذَّات الموصوفة به. فلا يُقال زيد علم. والعالم يدخل تحت كلِّ شرط، ولذلك يصدق على الذات الموصوفة به. فيقال: زيد عالم، وليست الذات معتبرة في المشتقِّ لأنَّه إذًا عرض علم مجرَّد قائم بذاته يصدق عليه العالم. وذات الباري علم قائم بذاته كما أنَّه عالم[1].

اعتباران للإسم

حريٌّ القول أنَّ للاسم اعتبارين: **الأوَّل:** كونه إسمًا ومرآة للمسمَّى، وبهذا الاعتبار لا يكون له وجود مغاير للمسمِّى. **والثاني:** كونه رقيقة من المسمَّى ونفسيَّة له. فقولك زيد لا يكون الحكم فيه إلَّا على المسمَّى. إلَّا إذا اعتبرنا ألفاظه مثل الكلمة والمركَّب الأحرف وغير ذلك. فبهذا الاعتبار لا يكون الاسم مظهرًا ولا دالًّا عليه.

وإلى هذين الاعتبارين أشار سبحانه وتعالى بقوله(**إن هي إلَّا أسماء**)، يعني أنَّ الأسماء برقَّتها الدالَّة على الله. وكل شيء دالٌّ على شيء فهو اسم له ليست مسمَّيات ومنظور إليها ومستقلَّات مغايرات لله (**سمَّيتموها أنتم**)، يعني أنكم صرتم محجوبين عن المسمَّى ناظرين إلى الأسماء. والناس في هذا النظر إلى الأسماء خمسةُ أقسام:

(1) - ناظرٌ إليها من حيث أنها أسماء الله، غافلاً عن وجودها وعن النظر إليها، أو شاعرًا بالنظر إليها وهو الذي يعبد المسمّى بإيقاع الأسماء عليه ويكون موحِّدًا.

(2) - وناظرٌ إليها من حيث إنَّها مسمَّيات، غافلاً عن المسمّى. وهو الذي يعبد الاسم من دون المسمَّى ويكون كافرًا.

(3) - وناظرٌ ينظر إليها مستقلَّات وإلى الاسم مستقلًّا عنها، وهو الذي يعبد الاسم والمسمَّى ويكون مشركًا.

---

[1]- راجع: الشيخ أحمد محمد حيدر- التكوين والتجليِّ- الطبعة الأولى – مكتبة دار الشمال – طرابلس – لبنان- ص 45.

(4) - وناظرٌ ينظر إليها من حيث إنَّها أسماء، غافلاً عن نظره إليها وهو المجذوب الذي رفع عنه القلم ولا حكم له في الكثرات.

(5) - وناظرٌ إليها من حيث إنَّها أسماء**، شاعرًا بنظره هو الكامل الجامع بين الطرفين.

والنظرات الثلاث الأخيرات، الأولى منها هي الواقع في النشأة الموسويَّة (وهي مادّيَّة بحتة)، والثانية هي الواقع بالنشأة العيسويَّة (وهي روحانيَّة بحتة)، والثالثة هي الواقع في النشأة المحمديَّة (وهي مادّيَّة روحانيَّة) وهي نظرة الكامل. وإلى ذلك يشير بقوله سبحانه **(محمد رسول الله والذين معه)**، واعتبر ما ذكر من تقسيم الاسم بحيث الكافر والمشرك والمجذوب والكامل. ونشآت الكمال الثلاث بالمرآة فقد تنظر إلى المرآة وهيئتها من غير صورة فيها، وقد تنظر إليها من حيث رؤية الصور فقط من غير شعور بها وبشكلها، وقد تنظر إليها من استكمالها وصفاتها وإلى الصورة فيها، وقد تنظر إلى عكس الصور فيها فقط شاعرًا بنظرك. وما ورد في جواب هل الخلق في الله أم الله في الخلق من قوله هل أنت في المرآة أو المرآة فيك، يشير إلى هذا، وكلُّ ما ذُكر في تقسيم الأسماء على رتب السلاك لا يخرج عمَّا ذُكر في الفئات الثلاث».[1] وهذا ما أشار إليه الإمام روح الله الخمينيُّ حول غفلة المجذوب أو الموحِّد عن مقام التكثير وحكم الكثرة، فحجب عن الوصول إلى كمال التوحيد، فقال:

« وبالجملة أنَّ مغزى مرامهم، وإن كان أمرًا واحدًا ومقصدًا واحدًا إلَّا أنَّ عليه حكم الوحدة وسلطانها على قلب العارف بحجبه عن الكثرة، فاستغرق في التوحيد، وغفل عن العالمين ومقامات التكثير، وحكم الكثرة على الحكيم يمنعه عن إظهار الحقيقة، ويحجبه عن الوصول إلى كمال التوحيد وحقيقة التجريد»[2].

وعلى الجملة فإن ما يذهب إليه المحققون حيال الأسماء والإسم الأعظم أن الله تعالى لا يُعرف إلا بالله. وحدود المعرفة بالله هي حدود معرفة مواقع الصفات، باعتبار أنَّ الصفات عين الذات باعتبار المصدر، وغير الذات باعتبار المظهر، (علم كلّه – قدرة كلّه – عين علمه – عين قدرته). والاسم يشير إلى معنى يعطيه لفظه في عقل المعتقد، فإن كان له رسم وشكل فليس للمعنى رسم أو شكل مهما بالغت في التصوُّر. وغاية العابد والمتشوِّق للمعرفة هي مواقع الصفة. إذ إنَّ الصفات الإلهيَّة لا تكون إلَّا متجلِّية بمظاهر إلهيَّة، فالتوجُّه إلى الصفات يكون من مواقعها بمواقعها. وقد

[1]- أبو حيان التوحيدي- الإشارات الإلهية- مصدر سبقت الإشارة إليه- ص 140.

[2]- روح الله الخميني الموسوي- مصباح الهداية- مصدر سابق- ص 61.

قال الإمام الصادق (ع): «من عرف مواقع الصفة بلغ قرار المعرفة»، فإنْ ربطنا هذا الحديث بحالته المعرفيَّة في ما سبق من أحاديث نجد أنَّ الغاية من المعرفة وحدِّها وحدودها، أي نهاية طلب الطالب، هي مواقع الصفات القائمة في التجلِّيات. فالله لا يُعرف إلَّا بذاته، وذاته لا تُعرف إلَّا بتجلِّياته. فالاسم رسم لمعنى. والمعنى غيب لا يُدرك فإن بقي غيبًا أضحى مجهولاً، وأحلناه إلى عدم. وارتسامه في مُخيّلة العابد العارف ليس ارتسام أشكال بل ارتسام معرفة الصفات في التجلِّيات مع إطلاق الصفات. «فمن كانت تلك القدرة قدرته فليست تلك الصورة صورته». وتأسيساً على ما جرى ذكره وتأصيله نخلص إلى ما خلص إليه العرفاء في معنى إسم الجلالة وتجلياته، وهو ان من عبد الاسم وكان غايته فلقد عبد محدودًا لأنَّ لكلِّ اسم حدودًا، مُرْتَسمه في مظهره. ومن عبد الاسم والمعنى جعل عبادته لاثنين منفصلين من حيث الأول محدود، والثاني غيب لا يدرك، وهذا منافٍ لوحدانيَّة الخالق. ومن عبد المعنى بإيقاع الأسماء والصفات عليه ليعرف كانت عبادة العارف الذي دخل من باب المظاهر إلى الحقائق وجعل الحسِّيَّات معابر للعقليَّات.

لائحة المصادر والمراجع

1. القرآن الكريم.
2. نهج البلاغة-
3. صدر الدين الشيرازي –الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربعة – ج -2 دار إحياء التراث العربي- بيروت- 1981
4. أبو حيان التوحيدي- الإشارات الإلهية- تحقيق: عبد الرحمن بدوي – مطبعة جامعة فؤاد الأول- القاهرة 1950.
5. روح الله الخميني الموسوي – مصباح الهداية الى الخلافة والولاية– مؤسسة الأعلمي للمطبوعات- بيروت- 1993.
6. أحمد حيدر(العلاَّمة)- التكوين والتجلِّي- دار الشمال- ط-1 1990.
7. علي الدرسونية(الشيخ)- كتاب الاحتباك – مخطوط خاص لدى الكاتب.
8. جابر بن حيَّان – كتاب الحدود – مكتبة نور – نسخة مكتبة القاهرة – مصر –2014.
9. علي بن محمد الشريف الجرجاني- كتاب التعريفات- دار الكتب العلمية- بيروت- ط -1 1983.
10. محمد بن نصير – مخطوط خاصّ لدى الكاتب. طب -2 نيسان 2006.
11. جابر بن حيان – كتاب الماجد – محفوظات المتحف البريطاني – لندن – رقم المحفوظ 8229.
12. عبد الرزاق الكاشاني – لطائف الأعلام في إشارات أهل الإلهام – الجزء الأول – تحقيق سعيد عبد الفتاح – مطبعة دار الكتب المصرية – القاهرة- 1985.
13. صدر الدين الشيرازي(صلا صدرا)- المظاهر الإلهية في أسرار العلوم الكمالية – تحقيق جلال الدين الأشتياني – دار خراسان- مشهد- 1380هـ.

علم المبدأ ILMOLMABDAA
العدد الخامس – 1445هـ – ربيع 2023م